النهار

الأحد 13 كانون الثاني 2008 - السنة 74 - العدد 23236

شـهـادة أسـتـاذ زائـر فـي جـامـعـة حـلـب (2)
كـلـيـة مـراقـب الـدوام ودفـتـره الـعـتـيـق وأسـاتـذة بـدلات الـنـقـل

الحلقة الثانية من شهادة مدرّس جامعي أمضى سنتين دراسيتين استاذاً زائراً في جامعة حلب - كلية الآداب والعلوم الانسانية. وهي تتضمن وصفاً لدور مراقب الدوام ووظيفته في الكلية، وسير العمل اليومي الاكاديمي وأحوال الأساتذة، وصلتهم بالطلبة.

-6-

في يومي الاول من العام الدراسي 2002-2003 في كلية الآداب والعلوم الانسانية في حلب التي بعثتني اليها إحدى جامعات الولايات المتحدة الاميركية استاذاً زائراً، استوقفتني عبارة مراقب الدوام التي رحت أسمعها تتردد كثيراً على ألسنة الاساتذة أثناء تبادلهم الكلام في لقاءاتهم.

بعد مدة قصيرة من إقامتي في حلب أدركت أن مراقب الدوام في الكلية أكثر أهمية وحضوراً في شؤون حياتها الاكاديمية والادارية التنفيذية من العميد ورؤساء الاقسام. وشأنه في أهميته وحضوره في الاعمال التنفيذية اليومية، شأن غيره من أشباهه في الادارات والمؤسسات العامة في سوريا كلها، حيث تجد في كل منها مراقباً أو حارساً إدارياً تنفيذياً يشغل دوراً محورياً في تسيير الاعمال في الادارة من صغيرها الى كبيرها.

يشغل مراقب الدوام في الكلية مكتباً صغيراً يداوم فيه ويسيّر منه الشؤون الاكاديمية الادارية للاساتذة والطلاب. فهو الذي يوزّع برامج التدريس عليهم، ويضبط أوقاته وحصصه ومواده في القاعات. وهو الذي يسيّر شؤون الحصول على الكتب والمقررات الجامعية. وهذه المهام مسجلة برامجها في دفتر عتيق تراه مطروحاً على طاولة مكتب المراقب نفسه والمستمر في وظيفته هذه منذ أكثر من 20 سنة، مع العلم أن البناء الجامعي الجديد للكلية أفتتح قبل سنة، فانتقل اليه المراقب من البناء القديم مع دفتره العتيق الذي يروح ينظر في صفحاته الموشكة على التلف من كثرة ما قلّبها متصفحاً، كلما راجعه أحد في الكلية في شأن من شؤونها الاكاديمية التنفيذية.

ودخلت الى واحدة من قاعات التدريس في الكلية لألقي محاضرتي الاولى على الطلبة. القاعة فسيحة مترامية الأرجاء وتتسع لنحو 500 شخص، فلم أجد فيها أكثر من 30 طالباً وطالبة جالسين في أرجائها متباعدين على كراسٍ خشبية عارية، قبالة منبر الاستاذ المحاضر العالي والضخم كمنصة القضاة في المحاكم، من أجل بثّ الرهبة في روع الطلبة وفي القاعة الفسيحة شبه الخالية. على الجدار خلف المنصة لوح يدوّن عليه المحاضر ملاحظاته بقلم حبر خاص، وتستعمل ممحاة خاصة لمحو الحبر عن اللوح. وسرعان ما علمت في حصة التدريس في اليوم التالي، أن عليّ إحضار قلمي وممحاتي معي الى القاعة في كل مرة، لأن تركهما قرب اللوح على طاولة المنصة العالية، لا يمكن إلا أن يعرضهما للسرقة.

في حصة التدريس الاولى طُرق باب القاعة، ودخل منه شخص قال إنه أستاذ في ا لكلية وخلفه مجمو عة من الطلاب.

- عن أذنك أستاذ، هذه القاعة لي ولطلابي في هذا الوقت، بحسب قائمة توزيع حصص التدريس التي حصلت عليها من مراقب الدوام، وعليك أن تخليها الآن، قال الاستاذ الواقف في باب القاعة وخلفه جمع من طلابه.

- لكن مراقب الدوام نفسه هو الذي أرشدني الى القاعة قبل وقت قليل، قلت للاستاذ، فجاوبني بأن عليّ الذهاب مع طلابي لمراجعته في مكتبه.

خرجت وطلابي الثلاثين خلفي وتوجهنا الى مكتب المراقب الذي لا يتوقف عن التدخين، فيما هو منشغل دائماً بالرد على مكالمات هاتفية، من دون أن يستطيع التفرغ لمحادثتك، أنت الواقف في مكتبه، لأكثر من دقيقة واحدة.

لا لم يكن هذا الاضطراب في توزيع حصص التدريس على القاعات من عوارض بداية العام الدراسي، بل

هو استمر على المنوال نفسه في أيام كثيرة متباعدة من العام نفسه. وحين سألت المراقب في المرة الاولى، قائلاً له: أين قاعتي، لقد أخذ أستاذ آخر قاعتي؟!، فتح دفتره العتيق وراح يقلب أوراقه باحثاً عن قاعة فارغة في الكلية، ثم أخذ بين الحين والآخر يجري مكالمة هاتفية مستفسراً عن القاعة الفارغة.
وكان عليّ أن أعلم لاحقاً أن مراقب الدوام يوزع حصص التدريس والقاعات بناء على علاقاته الخاصة بالاساتذة. فإذا كان لا يعرف الاستاذ معرفة شخصية، يباعد بين أوقات حصص التدريس التي في برنامجه اليومي، ولا يهتم بتأمين قاعة شاغرة له ولطلابه. وحتى رئيس القسم في الكلية لا يقوى على حمل مراقب الدوام على تدبير شأن ما أو تنفيذه. لذا على الاساتذة أن يخطبوا ود المراقب للحصول على ما يريدون. وهكذا وجدتني مرغماً على تعمّد ملاطفته كلما دخلت الى مكتبه، علّه يستلطفني كي أتدبر شؤوني في الكلية. وفي الدردشات التي تبادلناها في مكتبه، غالباً ما كان يسألني عن أميركا.

-7-

مرت أيام قبل أن يسلمني رئيس القسم في الكلية قائمة المواد والمقررات التي عليّ تدريسها. لاحقاً تبين لي أن التأخير سببه انتظار مدرسي الساعات الاضافية الدمشقيين الذين يتمتعون، عرفاً، بأفضلية الحصول على ساعات التدريس هذه، كي يحصلوا بدلات نقل عالية بالمقاييس السورية وحدها.
راتب الاستاذ الجامعي المتفرغ لا يتجاوز الـ15 ألف ليرة سورية (300 دولاراً) في الشهر، مهما أمضى من سنوات في الوظيفة. أما الاستاذ المتفرغ حديثاً فلا يتجاوز راتبه الشهري ما يوازي المئة دولار بالليرات السورية. والاساتذة الجامعيون الثابتون والمتفرغون في الملاك، شأن القضاة، هم عملياً وواقعاً من الطبقة البروليتارية في البلاد، لا من الطبقة المتوسطة، على ما يُفترض أن يكونوا. فالحارس أو العامل أو ناطور البناية السوري الذي يعمل في لبنان يحصّل في الشهر الواحد أكثر من راتب القاضي أو الاستاذ الجامعي في سوريا.
حيال هذه الحال يتزاحم الاساتذة الجامعيون المتفرغون في جامعات سوريا كافة للحصول على ساعات تدريس اضافية، لكن ليس في المدينة التي يقيمون فيها ويتفرغون للعمل في جامعتها، بل في مدن أخرى بعيدة، للحصول على بدلات نقل شهرية تعادل ثلثي راتبهم الشهري الثابت. فساعة التدريس الاضافية سعرها 150 ليرة سورية (8 دولارات)، لا تسمن حصيلتها الشهرية، الا إذا أضيفت اليها بدلات الانتقال من مدينة الى أخرى لتدريس هذه الساعات التي يبلغ ما يتحصل منها، إذّاك، ما يقارب عشرة آلاف ليرة سورية، أي مئتي دولار تضاف الى راتب التفرغ.
لذا تجد الاستاذ المتفرغ في جامعة حلب يسعى للحصول على ساعات اضافية في جامعة اللاذقية، لأن جامعة دمشق يفيض اساتذتها عن حاجتها. وتجد المدرّس المتفرغ في جامعة دمشق يسعى لتحصيل ساعات اضافية في جامعة حلب أو اللاذقية، وهكذا دواليك.
أما الاستاذ الزائر مثلي، فيحل حلول نكبة على الكلية التي انتدب للتدريس فيها، ما دام سيحصل على ساعات تدريس يخسرها الاساتذة المنتقلون من مدينة الى أخرى لتدريس ساعات اضافية تؤمن لهم بدلات الانتقال السمينة في المقاييس السورية. وهكذا لم أحصل الا على "نفايات" المواد، تلك التي لا يستطيع الاساتذة السوريون تدريسها.
المواد التي سلموني تدريسها تتطلب معرفة باللغات الاجنبية، الفرنسية والانكليزية والالمانية، وهي تقتصر على ترجمة نصوص من هذه اللغات الى العربية، بناء على قرار صدر قبل 5 سنوات يجبر الطلاب الجامعيين السوريين كافة على النجاح في هذه المواد، ليصيروا على معرفة ما بلغة أجنبية. وسرعان ما تبين لي أن ليس من اساتذة سواي في الكلية لتدريس هذه المواد، وأن الطلبة الذين عليّ تدريسهم نصوصاً لماكس فيبر وبرنار لويس وبرنارد شو في لغاتها الاصلية، لم يحصلوا من هذه اللغات الاجنبية سوى بضعة كلمات وعبارات دارجة.

-8-

حين سلمني مراقب الدوام برنامج التدريس، وسألته عن المطبوعات المتوافرة لمواد الترجمة، قال ان هناك كتاباً مقرراً عليّ ان اطلبه من مكتب بيع الكتب في البناء الجامعي. وسألت رئيس القسم عن اسم هذا الكتاب، فقال انه لا يعرف له اسماً، فهو من خريج جامعات الاتحاد السوفياتي السابق. ولكي يقوم بشيء ما يدل على انه رئيس قسم، كتب على ورقة عناوين المواد التي عليّ تدريسها، وأحالني مجدداً لمراجعة مراقب الدوام لتحديد ساعات التدريس وقاعاتها، فحصلت منه اخيرا على قائمة بأسماء كتب المواد المقررة.

حملت القائمة وذهبت الى مكتب الحصول على الكتب الجامعية، فاذا به اكشاك صغيرة كل منها يبيع كتباً لكلية معينة، كالزراعة والطب والعلوم الانسانية والهندسة. وفي الطبقة التي تعلو هذه الاكشاك مطبعة لطباعة هذه الكتب. ولكل كشك شباك كشباك بيع التذاكر في صالات السينما، يصطف امامه الاساتذة والطلاب حاملين لوائح الكتب التي يحتاجون اليها. وحين وصل دوري وأعطيت الموظفة في الكشك قائمتي، رأيت الكتب مستفة خلفها في الكشك كيفما اتفق، وسرعان ما قالت ان الكتب التي اطلبها غير متوافرة ولا تعلم عنها شيئاً.

مرت ايام قبل ان اراجع رئيس القسم للحصول على الكتب. رجوته السعي كي يؤمنها لي، وقلت له ان العام الدراسي قد بدأ ويجب عليّ ان احضّر مسبقا المحاضرات التي سألقيها على الطلبة. ما ان سمع كلمة "احضّر" حتى التفت الي مندهشاً مستغربا، وقال: "تحضّر؟! ماذا تحضر؟! الا تعرف الفلسفة وعلم الاجتماع؟ انت الحائز على شهادة دكتوراه من فرنسا، واخرى من اميركا، وتعرف كل هذه اللغات الاجنبية، وتريد ان تحضّر؟!

وسرعان ما انتقل رئيس القسم الى الكلام عن ادلب، بعدما عرف اسمي وانني من مواليد ادلب، فقال انه يعرف اهلي واعمامي والمحامي الذي كلفوه في دعاويهم القضائية في المحاكم، لاسترداد ارضهم التي شملها الاستملاك هناك. وبعد هذه المحادثة قال ان الاستاذ الذي كان في السنة الماضية يدرس المواد التي سأدرسها، هو من الحسكة، واعطاني رقم هاتفه لكي اتصل به للحصول على الكتب المقررة.

-9-

اتصلت بأستاذ الحسكة، فضرب لي موعدا للقائه في حلب بعد اسبوع. وحين اتى، جلب لي الكتب، فاستنسختها وأعدتها اليه حين التقينا. كان الكتاب في اللغة الانكليزية، وعلى هوامش بعض صفحاته ترجمات خاطئة تماما لبعض المقاطع. وانا اقلب صفحات الكتاب، رأيت كلمة (ستوب) مكتوبة بخط كبير في وسط احدى الصفحات، والى جانبها كتبت عبارة: هنا ينتهي الفصل الدراسي الاول.

لاحقاً احضرت من بيروت بعض كتب الاجتماعيات في اللغة الفرنسية، فاستنسخت بعض فصول منها ووزعتها على طلابي. وحين علم رئيس القسم بالامر جاءني مستهجناً تصرفي، معترضاً على فعلتي غير المسبوقة في الكلية، اذ كيف لي ان اوزع صفحات من كتب على الطلاب من دون حصولي على اذن مسبق منه ومن العميد ومن رئيس الجامعة، وصولا الى وزارة الثقافة والتعليم العالي، للموافقة عليها، فقلت له ان لا وقت لدي للقيام بهذا كله، وانني اتخلى عن تدريس هذه الصفحات للطلاب، ان اراد، و هذا ما حصل، لأنني كنت قد خبرت بعض الشيء حال الادارة في سوريا.

وأنا أستمع من رئيس القسم الى سلسلة المراتب الادارية التي عليّ حيازة موافقتها على استنساخ فصول من كتب وتوزيعها على الطلبة، استغربت أنه لم يسمِّ مراقب الدوام في هذه السلسلة، رغم أنه محور الحياة الأكاديمية في الكلية.

مرة، بعدما لاحظت أن الدروس تتوقف تماماً في الكلية بعد ظهر نهار كل ثلثاء، سألت المراقب عن السبب، فقال إن الدروس لا تتوقف في هذا الوقت، بل هي ساعات تدريس فعلية للعمل الحزبي. ما هو العمل الحزبي؟ سألت المراقب، فجاوب بأن المنتمين الى حزب البعث من الطلبة والاساتذة يعقدون إجتماعاتهم الاسبوعية في الجامعة في هذا الوقت.

لاحقاً علمت أن الحزبيين في الجامعة بين الاساتذة والطلاب لا يتجاوز عددهم الـ60 شخصاً، ويعقدون اجتماعهم بين الثالثة والسادسة من كل نهار ثلثاء، فتتعطل الدروس تماماً في الكلية.

محمد أبي سمرا

جميع الحقوق محفوظة - © جريدة النهار 2008